**مفهوم التواصلية في الفكر الغربي: دراسة فلسفية**

**المدرس المساعد: حوراء حميد محسن**

**hawraa77@uomstansiriyah.edu.iq**

**أولاً: البعد المفاهيمي للتواصل:** يشكل مفهوم التواصل (Continuity / Communication) ركيزة أساسية في الفكر الفلسفي الغربي، إذ يتداخل مع معانٍ متعددة تتراوح بين الوجودي والمعرفي والاجتماعي. فـ"التواصل" بوصفه استمرارية (Continuity)، يعبّر عن دينامية الذات في تفاعلها مع العالم والآخرين دون انقطاع. أما الاتصال (Communication)، فيشير إلى العملية التبادلية للمعنى والمعلومة، ويُنظر إليه كأداة ضمن الإطار الأوسع للتواصل.

ويُقابل التواصل، من الناحية الفلسفية، بمفهوم اللاتواصل، الذي يتجلى في الانفصال أو الانكفاء الذاتي، ويعبّر عن الانقطاع المعرفي أو الوجودي بين الذوات أو داخل الذات نفسها. وقد شكّلت هذه الثنائية (تواصل/لأتواصل) محوراً لنقاش فلسفي مستمر منذ العصر الحديث إلى الفكر المعاصر.

**ثانياً: الخلفية التاريخية والفكرية:** يعود الاهتمام الفلسفي بالتواصل إلى بدايات الفكر العقلاني والتنويري، حين ظهرت نظريات العقد الاجتماعي عند هوبز، ولوك، وروسو، والتي حاولت تفسير نشأة المجتمع على أساس اتفاق إرادي بين الأفراد. غير أن نقّاد هذه النظريات – خصوصاً من أنصار الفلسفة الوجودية والشخصانية – رأوا في تلك العقود شكلاً من أشكال الانفصال المصطنع، حيث يُفصل الإنسان عن غيره بوصفه كائناً قانونياً مجرداً، لا كائناً متواصلاً.

وقد جاءت نظرية التواصل كردّ على هذه الرؤية الانفصالية، معتبرة أن العلاقة الإنسانية ليست تعاقداً خارجياً، بل هي علاقة وجدانية وجودية تنبع من التداخل العميق بين الذوات. ومن أبرز المدافعين عن هذه الرؤية: كارل ياسبرز، وإيمانويل مونييه، وبول ريكور، الذين طرحوا التواصل بوصفه فعل كشف وتبادل حقيقي للوجود، لا مجرد اتفاق وظيفي.

**ثالثاً: التواصل كقيمة وجودية:** في الفلسفة الوجودية، وخصوصاً عند كارل ياسبرز، يُنظر إلى التواصل كشرط أساسي لتحقيق الذات. فالفرد لا يكتمل إلا في علاقته بالآخر، إذ أن الذات لا تُفهم إلا من خلال الانفتاح على الغير، وما يُسميه ياسبرز "التواصل الأصيل"، هو ذلك اللقاء الذي يتجاوز اللغة والتبادل العقلي، ليصل إلى مستوى التشارك في القلق والحرية والمصير.

في السياق نفسه، يرى مونييه، ممثل الفلسفة الشخصانية، أن الإنسان لا يُعرّف بوصفه وحدة منعزلة، بل باعتباره شخصاً ينمو ويتحقق في شبكة من العلاقات التبادلية. والشخص، عنده، لا يتحقق إلا في علاقة تواصلية مستمرة مع الآخرين، أساسها الاحترام المتبادل والانفتاح الأخلاقي.

**رابعاً: التواصل والمجتمع البورجوازي:** يُقدّم بعض المفكرين نقداً جذرياً لفكرة التواصل كما تُطرح في بعض النماذج الفلسفية، ويرون أن التواصل الظاهر كثيراً ما يُخفي تماسكاً طبقياً ومصلحياً، خاصة في المجتمعات البورجوازية الحديثة. فالفردانية التي تبدو وكأنها وسيلة للتحرر، قد تكون في الحقيقة أداة لإعادة إنتاج البنى الاجتماعية المغلقة، حيث يُستخدم الخطاب التواصلي لإضفاء طابع إنساني على علاقات تفتقر فعلياً إلى المساواة.

من هذا المنظور، يتحوّل التواصل إلى شكل من أشكال الهيمنة الناعمة، التي تُمارس عبر اللغة والمعايير الثقافية والرمزية، وهو ما تثيره النظرية النقدية، خصوصاً عند يورغن هابرماس، الذي حاول تجاوز هذه الإشكالية من خلال التمييز بين "الفعل التواصلي" و"الفعل الاستراتيجي"، حيث يسعى الأول إلى تفاهم حقيقي بينما يُستخدم الثاني لأغراض السيطرة.

**خامساً: أنطولوجيا التواصل عند هيدغر**: في إطار مختلف، يتناول مارتن هيدغر التواصل من خلال مشروعه الأنطولوجي. فهو لا يعالج التواصل كموضوع مستقل، بل بوصفه بُعداً من أبعاد الوجود الإنساني (الـدازاين). فالفهم، التأويل، والانكشاف، كلها عمليات تواصلية في جوهرها. وهيدغر يربط بين التواصل والحقيقة بوصفها "انكشافاً"، حيث يكون الإنسان في حالة انفتاح دائم على الموجودات والآخرين.

وبذلك يُعيد هيدغر تعريف التواصل من كونه عملية عقلانية إلى كونه حالة وجودية متأصلة في الكينونة، تقوم على الإنصات، والانفتاح، والتجلي. هذا النوع من التواصل غير مرهون باللغة فحسب، بل يتجاوزها إلى "الصمت المُنصت"، كأرقى أشكال الحضور المشترك.

**سادساً: باشلار والقطيعة المعرفية:** بخلاف الاتجاهات السابقة، يتخذ غاستون باشلار موقفاً نقدياً من فكرة التواصل، خصوصاً في المجال المعرفي. فهو يؤكد على وجود قطيعة أبستمولوجيا بين أنماط المعرفة، فلا يمكن الربط بين "المعرفة الساذجة" و"المعرفة العلمية" إلا عبر تجاوز جذري. المعرفة، عنده، تتطور من خلال تدمير الصور القديمة، لا من خلال تواصل تدريجي معها. وهذا ما يُعرف بـ"القطيعة المعرفية"، والتي تُعد شكلاً من أشكال اللاتواصل البنيوي.

**سابعاً: الخلاصة العامة:** تُظهر دراسة مفهوم التواصل في الفكر الغربي تنوعاً نظرياً واختلافاً في الأسس والمقاصد. فبينما تؤسس الفلسفات الوجودية والشخصانية لفكرة التواصل بوصفه علاقة وجدانية ووجودية، تُقدّم الفلسفة النقدية والعلوم المعرفية نظرات أكثر حذراً، إن لم تكن تشكيكية، في مدى إمكانيته وصدقه وحياديته.